اللغة الآرامية في بلاد الرافدين
دراسة في ضوء المعطيات الاثارية

د. محمد كامل روكان
كلية الآداب/ جامعة القادسية

اللغة الآرامية هي احدى اللغات السامية او الجزرية ، وواحدة من اهم لغات بلاد الرافدين، وتتفرع منها مجموعة عديدة من اللهجات التي انتشرت في العراق وفي بلاد الشام والأردن وشمال الحجاز وغربه، وتؤرخ الكتابات الآرامية الأولى الى المائة التاسعة قبل الميلاد، ومازالت بعض اللهجات الآرامية الى اليوم محكية في العراق و سوريا وفي قرى طور عابدين جنوب تركيا وفي البطائح فيما بين العراق الجنوبي وإيران.

لقد جاء أول ذكر للآراميين في الحوليات الآشورية منذ المائة الرابعة عشرة ق.م. باسم ، أرِم،أرَمُ (أخ ل مُ) ، وارم قبائل كانت تجول في غرب العراق. ولم يكن لهذه القبائل الآرامية لغة فصيحة مكتوبة لدى استقرارهم في العراق وسوريا مما دفع ملوكهم انذاك إلى تبني لغات الأقوام التي جاوروها، وهذا ما نجده في كتابات الملك الآرامي "كفارا" في غوزانا عاصمة مملكة بخياني – وهي مملكة ارامية قديمة كشف عنها عالم الاثار الالماني ماكس فون اوبنهايم ١٩١٠ في تل حلف بسوريا – التي عثر عليها مكتوبة بحروف مسمارية وبلغة آشورية، ونقش الملك كيلمو المكتوب باللغة الفينيقية في سمأل في القرن التاسع.[١]

وقد ورد في نص لتجلات بلاسر الأول(١١١٥-١٠٧٧ ق.م) أخبار عن سيطرة القبائل الآرامية على أواسط الفرات وأعاليه ، وورد أيضاً في بعض النصوص التي تعود للملك نفسه ذكر ست وثلاثين قبيلة آرامية استوطنت شرق دجلة وأواسط الفرات، فضلاً عن وجود ممالك وقبائل آرامية كانت قد استوطنت بلاد الشام.[٢]

لقد اخذ نفوذ الآراميين يزداد ويؤثر واصبحوا يهددون امن الامبراطورية الآشورية ، مما اضطر ملوك آشور إلى القيام بحملات عسكرية ضدهم كان هدفها القضاء على تمردهم المستمر أعقبتها حملات تهجير واسعة من أماكن استقرارهم إلى أماكن أخرى في الإمبراطورية الآشورية للحيلولة دون توحدهم.

فقد ذُكر أن تجلات بلاسر الثالث رحّل ما بين عامي ٧٤٢-٧٤١ ق.م ثمانية عشر ألف آرامي من الضفة اليسرى لنهر دجلة إلى شمال سوريا.[٣]

وقد ساعدت حملات الترحيل هذه على انتشار اللغة الارامية في ارجاء الامبراطورية الاشورية ، فعجز الآشوريون أمام الزحف الجديد الذي لم يتمكنوا من السيطرة عليه أو إيقافه وهو انتشار لغة الآراميين في بلادهم .

وهكذا فقد بدأ استخدام اللغة الآرامية في بلاد آشور وصار الحكام الآشوريون مضطرين على استخدام كتّاب آراميين إلى جانب الكتبة الآشوريين، وهذا ما نجده على عدة آثار مرسومة من أصل آشوري، ومن بين هذه الرسوم الرسم الجداري الذي عثر عليه في قصر تل بارسيب والذي يعود لزمن الملك تجلات بلاسر الثالث حيث يظهر فيه كاتبان أحدهما يكتب على ورقة بردي أو رقعة من الجلد والآخر على رقيم طيني ، وهذا يدل على ان الأول كان يكتب باللغة الآرامية والآخر بالخط المسماري[٤].

الرسم الجداري للكاتبين الآشوري والآرامي في تل بارسيب

ثم أصبح الكاتب الآرامي أحد موظفي البلاط الآشوري ، وقد ورد ذكره في النصوص الآشورية منذ القرن الثامن ق.م في صيغة (lu.a.ba.meš kur aramaia) ، فالمقطع الأول(lu.a.ba. meš) ، يعني باللهجة الآشورية الحديثة (كتّاب) ويترجم حرفياً (رجال الألف باء)، ويعني المصطلح كله (الكتبة الآراميون).[٥]

وتشير بعض النصوص الآشورية إلى وجود كتّاب آراميين في البلاط الآشوري، مثل كاتب القصر (أباكَو) في عصر الملك سنحاريب، كما تشير نصوص أخرى تؤرخ إلى القرن السابع قبل

الميلاد إلى كتاب آراميين، كاتب قصر آرامي خاص باسم الملك اسمه (نوريـّا)، وأخـرى تحمـل أسماء كتاب آراميين، مثل: "أحو، عوبري، حـّمالا، أيلي". [٦]

كما ورد ذكر اللغة الآرامية في بعض المراسلات الآشورية ، هي:

١. رسالة مرسلة من قبل حاكم صور المدعو " قوردي-آشور-لامور" إلى الملك تجلات بلاسر الثالث أو إلى سرجون الثاني يقول فيها **(بعثت نابو-اوشيزب مع الرسالة الآرامية من مدينة صور)** .

٢. رسالة أخرى يذكر كاتبها أن الأشخاص الستة والمعروفين بالأسماء وفق ماهو مدون في الوثـائق الآشورية والآرامية عليهم دفع الفضة كاملة (ضريبة الرعاة) في نهاية السنة .

٣. رسالة نجد فيها أن الملك الآشوري سرجون الثاني يؤنب احد عماله على بلاد بابل بعد أن طلـب منه أن يكتب إليه بالآرامية **(استنادًا إلى ما كتبت إذا كان مقبولا للملـك دعنـي اكتـب وابعـث رسائلي للملك بالآرامية على رسائل ملفوفة)** ، وكان جواب الملك **(لمـاذا لا تكتـب رسـائلك بالاكدية على رقم طينية ؟ رسائلك التي كتبتها يجب أن توقف بهذا الأمر الملكي)** .

٤. رسالة بعثها حاكم آشوري إلى ملكه يقول فيها **(الرسالة الآرامية التي كتبتها للملك سيدي)** .[٧]

وكل هذه الرسائل تدل على المكانة المهمة التي احتلها الكتـّاب الآراميـون فـي المجتمـع الآشوري وحصولهم على وظائف بارزة في القصر الملكي ، وهي أيضا دليل على اسـتخدام اللّغـة الآرامية في بلاد آشور.

كما يروي لنا العهد القديم محاورة بين القائد الآشوري (ربشاقا) وسفراء حزقيا ملك يهوذا عند أسوار أورشيلم في سنة ٧٠٠ق.م، اذ طلبوا منه أن يكلمهم بالآرامية بدلاً من العبريـة لـئلا يسـمع الحراس المكلفين بحماية الاسوار كلامه .

((كلمنا باللغة الآرامية فنحن نفهمها ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الذين على السور)) الملوك الثاني ١٨:٢٦

((فقال الياقيم وشبنة ويؤاخ لربشاقا: كلمنا نحن عبيدك بالآرامية لأننا نفهمها، ولا تكلمنـا باليهودية على مسامع هؤلاء الرجال القائمين على السور)) اشعيا ٣٦: ١١ .

ومن هذه القصة يتضح لنا أن سفراء الملك اليهودي كانوا يعلمـون أن القائـد الآشـوري (ربشاقِا) يتكلم الآرامية، وهذا يدل على أن اللغة الآرامية كانت واسعة الانتشـار فـي الإمبراطوريـة الآشورية وغيرها وربما كانت تمثل لغة ثانية في الإمبراطورية الآشورية وما يدعم رأينا هـذا هـو العثور على العديد من المكتشفات الأثرية التي تحمل كتابات آرامية إلى جنب الآشورية.

فقد عثر في نمرود (كالح) على عدة تماثيل لأسود تستعمل كوزن وتحمل في أغلب الأحيان، مع الكتابة المسمارية ، كتابة آرامية تشير إلى ذلك الوزن ، وهي تحمل أسم شلمنصر أو سنحاريب.[٨]

كما عثر على العديد من القطع النقدية والصكوك المكتوبة بالخط المسماري، وفيها كتابة آرامية تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد. وعثر على أختام من الفخار كتبت بالآرامية فقط في نينوى وأشور وغوزانا. وكل هذه دلائل على انتشار الآرامية في القرن السابع ق.م في الإمبراطورية الآشورية [٩].

ولم يكن انتشار الآرامية مقتصراً على بلاد الرافدين وسوريا، بل توغلت في أرض فلسطين، فبعد أن سقطت السامرة عاصمة المملكة الشمالية (مملكة إسرائيل) على يد سرجون الثاني(٧٢٢-٧٠٥ ق.م) وهجّر سكانها إلى مناطق مختلفة في إمبراطوريته قام بنقل أقوام من بابل وكوثا وأقوام من حماة إلى أراضي مملكة إسرائيل ووطنّهم بدلا عن أهلها، فضلاً عن رفع الحدود بين ممالك اليهود والممالك الآرامية في بلاد الشام. مما كان سبباً للاختلاط بين الآراميين واليهود. وهذه من العوامل التي أدت إلى انتشار الآرامية في فلسطين .

ومذ ذاك ، وحتى سقوط بابل على أيدي الفرس سنة ٥٣٩ ق.م.، بدأ اليهود في بلاد الرافدين يتركون العبرية ويتحدثون ويكتبون بالآرامية التي كانت لغة أبناء الشعب في نينوى وبابل وما حولها . لذلك نبذوا خطهم العبري القديم واختاروا الخط الآرامي المعروف بالمربع لكتابة أسفار التوراة.

اللغة الآرامية في العهد البابلي الحديث

في عام ٦٢٦ ق. م اعتلى نبوبلاصر عرش بابل ، وهو من قبيلة آرامية تدعى قبيلة كلدو ، ومنذ ذلك اليوم بدأ الحكم الرسمي لسلالة بابل الأخيرة والتي يطلق عليها (الدولة الكلدية)، أو (مملكة بابل الحديثة)[١٠] . وقد ازدهرت الآرامية خلال هذا العهد، الاّ اننا نجد الكتابات المسمارية في ذلك العهد كثيرة إذا ما قورنت بالكتابات الآرامية، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى أن اللغة الآرامية كانت تكتب على لفائف البردي وعلى الجلود، وهذه العناصر تتأثر بالمتغيرات البيئية ، في حين أن اللغة الاكدية كانت تكتب على الرقم الطين، والطين من العناصر التي لا تتأثر بالمتغيرات البيئية، بل على العكس قد تصبح أصلب .

ومع هذا فقد عثر على ألواح مسمارية عديدة تحمل كتابات آرامية تعود إلى عهد الملك نبوخذنصر والملك نبونائيد في سبار وفي بابل وفي مواقع اخرى تعود لهذا العصر كذلك ، كما عثر في بابل على آجرات كانت قد استخدمت في المباني الرسمية لنبوخذنصر وهي تحمل كتابات مسمارية وآرامية [١١]، وهذه أشارة مهمة تدلنا على سير اللغة الآرامية ردحاً من الزمن إلى جنب اللغة الاكدية ولهجاتها.

وفي عهد نبوخذ نصر(٦٠٥- ٥٦٢م) تم القضاء على مملكة يهوذا الجنوبية ورُحل سكانها اليهود إلى بابل وماحولها ، في حملتين ، الأولى سنة ٥٩٧ق.م، والثانية ٥٨٧ق.م. ، وقد قدرت اعداد اليهود المرحلين بـ (٦٢٠٠٠- ٧٠٠٠٠) من الرجال والنساء[١٢] ، وكان من بينهم قرابة ثلاثة آلاف يهودي من الصناع والحرفيّين. [١٣]

وقد كشفت لناالحفريات في نفر عن العديد من الرقم الطينية وهي محفوظة الآن في المتحف العثماني باسطنبول، تعود إلى أيام الملوك الاخمينيين ارتحشستا الأول وداريوس الثاني (٤٦٤- ٤٠٥ق.م) تذكر أن عدداً كبيراً من اليهود المرحلين قد استقروا في نفر وما حولها[١٤]، وان هذه الأعداد الكبيرة من اليهود خالطت سكان بابل، ومن يخالط شعباً قسرياً أو اختيارياً، يضطر إلى تعلّم لغة ذلك الشعب، ليتمكن من ممارسة حياته الدينية والاجتماعية والاقتصادية من تعبد وبيع وشراء وغير ذلك. فنجد أن اليهود في بابل مارسوا حياتهم وشعائرهم وواصل كهنتهم أعمالهم الدينية بتحرير اهم فصول التوراة والتمهيد لتدوين التعاليم اليهودية المعروفة بإسم (التلمود البابلي)[١٥]. وكان اليهود المرحلين في بابل يتكلمون اللغة الآرامية.[١٦]

وقد ذكر ساكز في كتابه "عظمة بابل" : أن من مزايا اللغة الآرامية في العهد البابلي أنها كانت اللغة الأم لمجموعة من الأجناس البشرية أكثر انتشاراً من مجموعة المتكلمين باللغة الأكدية.[١٧]

اللغة الآرامية في العهد الاخميني

وفي سنة ٥٣٩ ق.م سقطت بابل على أيدي الفرس الأخمينيّن، فأفل نجم اللغة الاكدية (اللهجة البابلية) ، وأضحت اللغة الآرامية اللغة الرسمية للإمبراطورية الجديدة، بعد أن أعلن داريوس رسمياً ان اللغة الآرامية لغة عامة لإمبراطوريته المترامية الأطراف[١٨]، والتي امتدت في عهده (٥٢١- ٤٨٥ق.م) من نهر النيل إلى نهر الأندوس، مقسمة إلى مقاطعات ترتبط جميعها بالسلطة المركزية في شوشانا، وكان من الضروري لإدارة تحكم بلداناً مختلفة الأجناس والألسن أن تكون لها لغة واحدة هي اللغة الرسمية [١٩].

وقد حلت الآرامية محل لغات أخرى ايضا كالعبرية والفينيقية ، وتوغلت جاليات آرامية اللسان في العصر الأخميني الى ما وراء حدود بلاد الرافدين فعثر على نقوش آرامية في أماكن مختلفة من أسيا الصغرى، مثل كيليكيا وليديا وفارس[٢٠] .

وفي مصر عثر على وثائق كتبت بالآرامية ، تعود إلى القرن الخامس ق.م. ، تشير إلى وجود مستوطنة يهودية على هيأة حامية عسكرية أُنشئتْ على الحدود الجنوبية المصرية في جزيرة في النيل، سميت باليونانية (Elephantine)، وتعني جزيرة الفيلة. [٢١]

وقد كشفت لنا رسالة كتبت بالآرامية بعثها رجل مصري يدعى (فحيم) إلى موظف فارسي يدعى (ميترا واهيت) أن المصريين طيلة ايام الحكم الأخميني كانوا يراسلون السلطات الفارسية باللغة الآرامية [٢٢]، وهذا يعني أن اللغة الآرامية كانت هي اللغة الدولية آنذاك، فكلا المتراسلين له لغة خاصة(مصرية وفارسية)، ونراهما تراسلا بلغة أخرى معروفة لكليهما، وهي الآرامية ، كما في وقتنا الحاضر، فالعربي يراسل الإيطالي أو الألماني باللغة الإنجليزية ، لأنها اللغة الدولية حاليا.

وفي عهد كورش الأخميني سُمح لليهود المهجرين بالعودة إلى أورشليم وبناء هيكلهم الذي دمره نبوخذنصر، وأعيدت اليهم جميع الآنية المقدسة لهيكل سليمان ، فعاد كثير من اليهود يتزعمهم عزرا الكاهن ، الذي كتب أخبار العودة و إعادة بناء الهيكل باللغة الآرامية في "سفر عزرا" [٢٣].

وفي أيام داريوس عُين دانيال أول الوزراء الثلاثة في مملكة الأخمينيين وأقيم على مئة وعشرين مرزبانًا، أي والياً ، عُهد اليهم تدبير شؤون المملكة ، وقد دونت أخبار دانيال النبي ورفاقه منذ أن جيء بهم إلى بابل أيام نبوخذ نصر في سفر دانيال .وقد كتب هذا السفر بالأصل بلغتين: جزء منها بالآرامية وتبدأ من الإصحاح الثاني الآية الرابعة إلى الإصحاح السابع الآية الثامنة والعشرين ، أما بقية السفر فقد كتب بالعبرية. ومن المحتمل أن يكون هذا السفر قد كتب كله بالآرامية، ثم نقلت بدايته ونهايته إلى العبرية لتسهيل دمجه في مجموعة أسفار العهد القديم.[٢٤]

اللغة الآرامية في العهد اليوناني

وفي عام ٣٣١ق.م هُزِم الفرس الأخمينيّون على يد الأسكندر المقدوني ، في معركة (اربلا) في الموقع المسمى (كوكميلا) بالقرب من مدينة اربيل حالياً، وفتحت بابل في العام نفسه، وتمت السيطرة بعدها على معظم الشرق الأدنى، فأضحت بعد ذلك اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية. [٢٥]

وبعد وفاة الأسكندر المقدوني ، قُسّمت إمبراطوريته إلى ثلاث ممالك بين قواده سلوقس ، بطليموس، انتيكيوس، فكان العراق جزءا من المملكة السلوقية الممتدة من تخوم الهند إلى حدود مصر.[٢٦]

وأمام هذا المد اليوناني والثقافة الهلينية انحسرت اللغة الآرامية، وانحطت عن مرتبتها الرفيعة ، وفقدت الوحدة التي كانت تتمتع بها تحت ظل الإدارة الفارسية [٢٧]، الا انها بقيت لغة الشعب الدارجة .

فالكتابات النبطية تقدم لنا آرامية اقرب إلى "آرامية المملكة" وترتقي هذه الكتابات الى عهد يتراوح بين القرن الأول ق.م. والقرن الثالث الميلادي، وتتوزع على مجموع البلاد النبطية، من شمال الحجاز(حجرة) الى الحدود السورية الجنوبية (بصرى) في طريق البتراء العاصمة . وفضلا عن ذلك كمية وافرة من الرسوم التي وجدت في شبه جزيرة سيناء ، وعددها يربو على ٣٠٠٠. فالنبطيون ربما كانوا عربا يتعاملون بالعربية ، وهناك آثار بينة من التأثير العربي بادية على الآرامية في كتاباتهم، لاسيما في الألفاظ[٢٨]، أما تدمر فقد أظهرت كتاباتها الصلة المتينة بآرامية المملكة مع تجديد كبير في الإملاء والقواعد نشأ عن نمو اللغة نموا مستقلا .[٢٩]

وفي فلسطين – السامرة والجليل– حلّت الآرامية محل العبرية لغة محكية وأهمل اليهود اللغة العبرية لغة التخاطب فيما بينهم واحتفظوا بها لغة مقدسة (لغة دين وعلم). وهكذا فقد احتوى العهد القديم نفسه على بعض نتف آرامية تعود الى ذلك العصر، فهناك زيادة آرامية على نص ارميا (١١/١٠) وحاشية آرامية من كلمتين عبريتين في سفر التكوين (٤٧/٣١) ومقاطع مهمة في سفر عزرا (٨/٤–١٨/٦ و١٢/٧–٢٦) ، وما يقرب من نصف سفر دانيال (٤/٢–٢٨/٧) . ويظن الباحثون المعاصرون ان سفر دانيال ربما يرتقي في مجموعه الى سنة ١٦٧ او ١٦٦ ق.م.، ويحتمل ان السفر كله كتب باللغة الآرامية ثم نقلت بدايته ونهايته الى العبرية لتسهيل مهمة دمجه في مجموعة الكتب المقدسة كما اسلفنا سابقا، فآرامية العهد القديم كانت الآرامية الوحيدة التي عرفت عن عهد ماقبل الميلاد ، وكان يطلق عليها اسم " الكلدية " وان كان لها صلة استمرار متينة مع آرامية المملكة لكنها لم تكن آنذاك الا لهجة موضعية أي آرامية فلسطينية.[٣٠]

واستمر الناس يتخاطبون بالآرامية ، وكانت هي اللغة الوحيدة التي يتقنها الناس في عهد السيد المسيح . وبها كانت تشرح الأسفار المقدسة في المجامع والكنس اليهودية ، وهكذا نشأ (الترجوم) وهو ترجمات آرامية مفصلّة للكتاب المقدس، ولدينا شواهد أخرى عن الآرامية الفلسطينية ، منها تلمود أورشليم وبعض الكتابات القبرية. [٣١]

اما في بلاد الرافدين، ومنذ انتشار المسيحية فيها، فقد أخذت الآرامية القديمة تترسخ في النصوص الأدبية وفي الكتابات بلهجاتها الرئيسية الثلاث اليهودية– البابلية ، المندائية والسريانية. فالآرامية اليهودية – البابلية هي لغة تلمود بابل الذي كتب في القرن الخامس والسادس الميلادي،

وصدر عن الجماعات اليهودية المستقرة في بابل القديمة . أما المندائية فهي لغة الصابئة المندائيين التي ازدهرت أيضا في بلاد بابل في مطلع المسيحية وخلفت لنا كتبا عديدة ، أما السريانية فهي لغة الرها الخاصة ، والرها مدينة واقعة في حوض الفرات الكبير غير بعيدة عن حران القديمة، وكانت لأهمية كنيسة الرها المتزايدة اليد الطولى في إقرار هذه اللغة واتخاذها لغة فصيحة وكلاسيكية للجماعات المسيحية المنتشرة في بلاد الرافدين وفي سوريا ، ولنا من هذه اللغة أدب غزير ، لاسيما اللاهوتي منه، ويتضمن ترجمات عدة مؤلفات يونانية في الفلسفة والعلوم.[٣٢]

أما الشواهد الأثرية التي عثر عليها والتي ترجع إلى الفترة الهيلينية في بلاد الرافدين ، فهي وثائق رسمية مكتوبة بالآرامية تشير إلى أن مدينة (أوروك) كانت تسمى عند الإغريق (أورخوي) وتستوطنها جالية يونانية.

وعثر كذلك على كتابة آرامية ترجع إلى العهد نفسه مكتوبة على آجر مزجج في حجرة العبادة المقدسة الخاصة بمعبد ايركال في مدينة أوروك ، وعثر أيضا على قطع طينية كتب عليها بالآرامية والإغريقية كانت تربط بالوثائق لتعيين مضامينها.[٣٣]

وفي العهد السلوقي نشأت في القسم الجنوبي من العراق ، عند ساحل الخليج ، دويلة اسمها (كراكينة) او (كرخينة) وهي التي ورد اسمها في المصادر الآرامية (السريانية) والعبرانية بهيأة (ميسان) ، وقد نالت هذه الدويلة استقلالها وانفصلت عن تبعيتها للدولة السلوقية في عهد انطيوخس الثالث (٢٢٣-١٧٨ق.م) على اثر اندحاره على أيدي الرومان ، وتدرجت في النمو والازدهار حتى غدت في العهد الفرثي من الدويلات المهمة ، وكان جل سكان هذه الدويلة من الآراميين . [٣٤]

اللغة الآرامية في العهد الفرثي

وفي عام ١٢٦ ق.م. وبعد أن سيطر الفرس الفرثيون على العراق وقضوا على الحكم السلوقي، اتخذوا الخط الآرامي لكتابة لغتهم، وقد عثر على نقود كتبت عليها كلمات فهلوية بخط آرامي ، مثل نقود مهرداد الرابع وبلاش الاول والثالث والرابع والخامس واردوان الخامس ، وعثر ايضا على نسخة مكتوبة باللغة الفهلوية وبخط آرامي .[٣٥]

وفي عهد الفرثيين نشأت ممالك مستقلة في بلاد الرافدين، كمملكة الحضر، التي تقع بقاياها حاليا إلى الجنوب الغربي من مدينة الموصل على مسافة ١١٠ كم. وتبعد عن مدينة آشور القديمة حوالي ٧٠ كم. ظهرت مملكة الحضر في القرن الثاني الميلادي وحكمها أربعة ملوك استمر حكمهم قرابة المائة عام . وقد كان سكان هذه المملكة خليطا من الآراميين والعرب[٣٦]، ويبدو أن القبائل العربية كانت تشكل غالبية سكانها لهذا كان يطلق عليها اسم (عربايا) في اللغة الارامية[٣٧]، او ربما لأن

ملوكها كانوا من اصل عربي ، ومع هذا فقد اشتهرت مملكة الحضر بأنها فرثية لأن قوتها وصيتها الواسع عُـرفا في العهد الفرثي في العراق. [٣٨]

وقد كشفت لنا التنقيبات في بقايا الحضر منذ عام ١٩٥٠ عن كتابات حضرية مكتوبة بلغة آرامية، بلغ عدد ما نشر منها ٤١٦ كتابة ، كما اكتشف ما يزيد على أربعين كتابة أخرى، وقد تبين من خلال هذه الكتابات أن لغة الكتابة في الحضر من اللهجات الآرامية الشرقية بحكم موقعها وخصائصها اللغوية.[٣٩]

ومن الممالك الأخرى التي نشأت في العهد الفرثي مملكة أوسروينا (الرهـا) . وتقع هذه المملكة في شمالي مابين النهرين ، يحدها غربًا نهر الفرات وشمالاً جبال أرمينيا وجنوبًا الصحراء وشرقًا نصيبين وعاصمتها الرها (اورهاي) ، وسماها الإغريق (اودسا). وكان سكانها يستخدمون السريانية وهي من اللهجات الآرامية الشرقية وتعرف بسريانية الرها ، وقد أدّت السريانية دوراً مهماً في الشرق بأسره يضاهي الدور الذي أدته الآرامية في العهد الأخميني.

عثر على الآثار الكتابية الأولى لسريانية الرها في مناطق مختلفة، أهمها الرها وضواحيها ودورا على الساحل الغربي من نهر الفرات ، وبيرتا وسدين في تركيا ، وقرب مدينة حماة السوريّة وحتى في القدس ، ويرتقي تاريخ بعضها إلى القرن الأول الميلادي .

ولما اعتنقت مملكة اوسروينا المسيحية اتخذت اللغة السريانية لغة طقوسها الدينية ، فكانت اوسروينا أول دولة مسيحية في العالم ، ومنها انتشرت المسيحيّة، سيمّا نحو الشرق والجنوب إلى وادي الرافدين. ومع المسيحية انتشرت اللغة السريانية، فنبغ كتّاب بارعون أمثال برديصان وافراهاط الحكيم الفارسي ومار افرام ويعقوب السروجي وغيرهم. كما نشأ أدب سرياني رفيع يضاهي أدب اشهر اللغات في العالم. وانتشرت المدارس السريانية في كل بقعة من بلاد الرافدين وسوريا وبلاد فارس. فانحسرت أمامها سائر اللهجات الآرامية التي كانت موجودة آنذاك ، حتى أضحت السريانية لغة الأدب والتخاطب لدى كثير من الشعوب . و توغلت السريانية في أواسط آسيا والهند والتبت ، ووصلت في نهاية القرن السابع الميلادي إلى الصين وبلاد المغول. وامتدت باتجاه الغرب ووصلت إلى وادي النيل فوجد دير قديم للسريان في وادي النطرون في مصر يقع ما بين القاهرة والإسكندرية وهو مبني على أسم مريم العذراء ، وفيه خزانة كتب سريانية كثيرة العدد.[٤٠]

وقد ذكر فيليب حتّي في كتابه : أن أحد المبشرين للمسيحية في كنيسة انطاكيا كان يشكو من عدم استماع الكهنة لمواعظه اليونانية، وأنهم لا يسمعون سوى السريانية الدارجة [٤١]، التي أخذت تنتشر مع انتشار الديانة المسيحية .

وفي نهاية الحكم الفرثي شهدت بلاد الرافدين تدفق هجرات عربية من قبائل تنوخ، نزلت في الأنبار والحيرة وأطراف الفرات وغربيه ، وقد استطاعت هذه القبائل أن تؤسس لها فيما بعد دولة عرفت بأسم (دولة المناذرة) أو (دولة الحيرة) ، وكان سكانها خليطاً من العرب والآراميين[٤٢] واقوام أخرى من اليهود والفرس.[٤٣]

وقد كان عرب الحيرة الأوائل وثنيين،الاّ ان الديانة المسيحية انتشرت فيما بعد في عموم الحيرة ، وساعد على انتشارها تنصر بعض ملوكها كالنعمان السائح (٤٠٣- ٤٣١م) والنعمان بن المنذر المعروف بأبي قابوس(٥٨٥-٦١٣م) وإياس بن قبيصة الطائي(٦١٣-٦١٨م) ، فانتشرت الأديرة والكنائس والمدارس في دولة الحيرة ، فاعتنق أهلها المسيحية ، وكانوا يتقنون الآرامية فضلاً عن لغتهم العربية بحكم تنصرهم لأنها لغة الدين المقدسة ، وتأثرت لغتهم بلغة الآراميين ، فتكونت لديهم لغة عربية مشوبة برطنة آرامية . وقد بدت على السنتهم .

وروي ان خالد بن الوليد حين دخل الحيرة سنة ٦٣٣م سأل رجلا من أهل الحيرة ، وهو عبد المسيح بن بقيلة ، قائلا : أعرب انتم ام نبط ؟، وقد أراد بالنبط الآراميين ، فاجابه ابن بقيلة ، قائلا:نحن نبط استعربنا وعرب استنبطنا. [٤٤]

وربما قد استشكل الامر على خالد وهو ابن العربية عند سماعه لغة القوم ، وهي عربية مشوبة برطنة آرامية ، لذا سأل عبد المسيح هذا السؤال ، وقد جاء جواب عبد المسيح غاية في الوصف والبلاغة، إشارة منه إلى الاختلاط والتمازج الحاصل بين العرب والآراميين النبط ، وتأثر لغتي القوم ببعضها .

كما اننا نجد شواهد قبور عثر عليها، وهي تعود الى ذلك العهد كتبت بخط آرامي نبطي ، وربما كتب بعضها بلغة آرامية . فشاهد قبر (فهرو) الذي عثر عليه في أم الجمال، من أعمال شرق الأردن ،وهو مربي جذيمة احد ملوك الحيرة، مكتوبًا بلغة آرامية وخط آرامي نبطي.

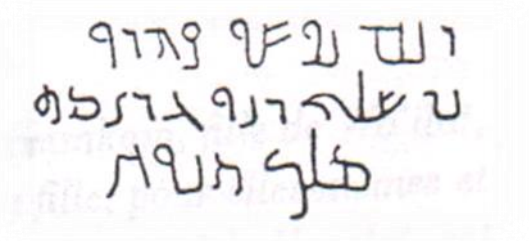

دنه نفشو فهرو

بر شلي ربو جديمت

ملك تنوخ

ترجمة النقش

هذا قبر فهرو، بن شلي مربي جذيمة ، ملك تنوخ [٤٥]

وكذلك نقش النمارة الذي يعود تاريخه الى سنة ٣٢٨م ، وهو شاهد أقيم علـــى قبـــر أمـــرىء القيس الأول الملقب بـــ(ملك العرب كلهم)، وهو أحد ملوك العرب المناذرة، والذي عثر عليه في قرية النمّارة الواقعة بين دمشق وبصرى، وهو مكتوب بخط آرامي نبطي وبلغة عربية ممزوجة بالسريانية احدى لهجات الآرامية.[٤٦]

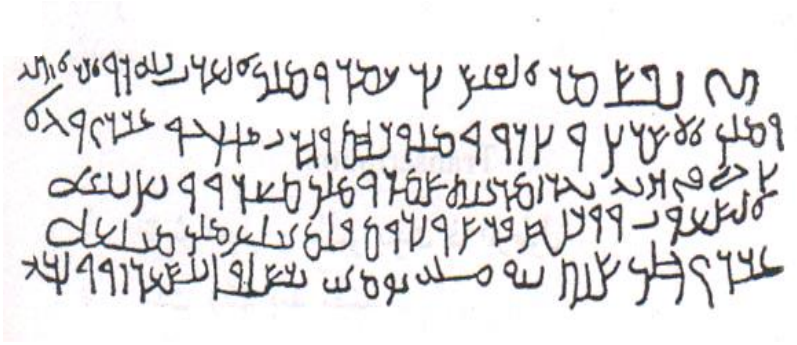

(نقش النمارة)[٤٧]

تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التج

وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحج و عكدي وجا

بزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو وبين بنيه

الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده.

ترجمة النقش

هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج

وملك الاسدين ونزارًا وملوكهم وهزم مذحج بقوته وجاء

بزجي في حبج نجران مدينة شمر وملك معدًا وانزل بين بنيه

(ارض) الشعوب ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه
في الحول، هلك سنة ٢٢٣ يوم سبعة من الول (كانون الاول) ليسعد الذي ولده[٤٨] .

اللغة الآرامية في العهد الساساني

اتخذ الساسانيون ٢٢٦م اللغة الآرامية لغة الإدارة في بلاطهم[٤٩] . كما شاع في عهدهم استعمال كلمات آرامية في الكتابة، ولكنهم عند القراءة كانوا يستخدمون كلمات فهلوية بدلاً عنها، فمثلاً كانوا يكتبون كلمة (ملكا) باللغة الآرامية ، وهي بمعنى ملك ، ولكنهم يقرأونها (شاه) ، وهذا النوع من الكتابة كان يسمى (هوزوارش) أو (زوارش)[٥٠] ، وقد وصل عدد هذا النوع من الكلمات الآرامية التي استعملت في اللغة الفهلوية إلى أكثر من ألف كلمة. أما في بلاد الساسانييّن فقد كان الخط المستعمل في تلك الحقبة هو الخط الفهلوي وهو مقتبسٌ من الخط الآرامي. كما اكتشف خط في أسيا الوسطى يعرف الآن بأسم (الخط الصفدي)، وهو مقتبس من الخط الآرامي ايضا، ويذكر ان هذا النوع من الخط هو من الخطوط الإيرانية القديمة.[٥١]

اللغة الآرامية في العهد الإسلامي

وعند انتشار الإسلام في بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين انتشرت اللغة العربية فيها كونها لغة القرآن الكريم ، فانحسرت اللغة الآرامية السريانية وتراجعت تراجعاً شديداً ، وحلت العربية محلها لغة رسمية ومحكية ، وبقيت الآرامية السريانية مستعملة في كنائس الموارنة والروم والسريان والآثوريين والكلدان ومحفوظة عند علمائهم .[٥٢]

وقد حصل مع تمادي الأيام اختلاف في اللفظ للناطقين بالآرامية السريانية فانقسمت إلى لهجتين شرقية وغربية. فالشرقية تعرف بالكلدية الآثورية، وهي لهجة الآثوريين النساطرة والكاثوليك الكلدان ، وهي الأقدم ، أما الغربية فتعرف بالسريانية وهي لهجة المورانة والسريان الارثـوذكس والكاثوليـك حيثما وجدوا.[٥٣]

ولابد لنا من الإشارة إلى إسهام السريانية وآدابها في إثراء اللغة العربيـة وتراثهـا الفكـري والعلمي، لاسيما في العصرين الأموي والعباسي. فقد كان للناطقين بالسريانية دور كبيـر فـي رفـد الحضارة العربية في مجالات وعلوم شتى ، كالطب والفلسفة والترجمة والفلك وعلوم أخـرى ، وقـد برزت أسماء سريانية كان لها دور في نقل المعارف والعلوم إلـى العربيـة ، مثـل آل بختيشـوع ، كبختيشوع بن جبرائيل وجبرائيل بن بختيشوع وابو سعيد عبيد الله حفيد بختيشوع ويوحنا بن بختيشوع بن جبرائيل.

وقد تميز آل بختيشوع في الطب علماً وممارسة، وكانوا يتقنون اليونانية والعربية والفارسية فضلاً عن لغتهم السريانية. فكان جبرائيل طبيباً خاصاً للخليفة العباسي هارون الرشيد ، كما وضع رسالة خاصة في المطعم والمشرب لابنه الخليفة المأمون . أما بختيشوع فقد كتب مصنفات أهمها رسالة في تدبير الأبدان وأخرى في الحجامة، وكان كاتباً في ديوان الخليفة المقتدر .

وكان لأبي سعيد عبيد الله آثار علمية جمة مثل كتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر، وكتاب طب الأخلاق، وكتاب مناقب الأطباء، وكتاب نوادر المسائل وغيرها ، أما يوحنا بن بختيشوع فقد نقل كتبا كثيرة من اليونانية والسريانية إلى العربية.[٥٤]

ومن أعلام السريان الذين ساهموا في رفد الحضارة العربية ايضاً آل ما سويه، ومن أشهر أعلامهم أبو يوحنا ماسويه وأبنه أبو زكريا يوحنا بن ما سويه الذي أشتهر بالترجمة والتأليف. ذكر له أبن أبي أصيبعة أثنين وأربعين بين كتاب ومقالة، معظمها في الطب. ويذكر ابن جلجل في كتابه (طبقات الأطباء والحكماء) "ان هارون الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه السرياني ترجمة الكتب القديمة مما وجد في أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم التي فتحها المسلمون، فوضعه أمينا على الترجمة".

كما كان لآل حنين دور عظيم لا يخفى على المعنيين بشؤون التراث والحضارة ، إذ أسهموا اسهاماً كبيراً في نشوء المعرفة وازدهارها وتطويرها ، ومن أشهر أعلام هذه العائلة ، حنين بن إسحاق (٨١٠- ٨٧٣م) ، وأبنه أسحق بن حنين وأبن أخته حبيش بن الحسن الأعسم ، وقد نبغ آل حنين في نقل الكتب الطبية بالدرجة الأولى ، ثم كتب الفلسفة والفلك والرياضيات وغيرها ، وقد ذُكر أن حنين وحده ترجم ولخص وفسر أكثر من مائتي كتاب ومقالة[٥٥]، ونقل إلى العربية من مؤلفات ابقراط وجالينوس، نذكر منها: أسباب الأمراض،أصناف الحميّات الأمزجة ، التشريح للمتعلمين ، وغيرها.

أما أسحق بن حنين فان ترجماته تربو على الخمسين، فقد نقل إلى العربية من مؤلفات أرسطو كتب الطبيعة، الحروف ، الإلهيات ، النفس والأخلاق ، الكون والفساد ، كما أنه ترجم لأقليدس كتب الأصول والتفسير والنسب والفرضيات والبصريات والتحرير وغيرها من الكتب النافعة .

وترجم حبيش بن الحسن الأعسم لأبقراط كتب العهد، الأجنة، الأهوية ، المياه والبلدان ، ونقل أيضاً كتب جالينوس ، مثل كتاب النبض الكبير ، اختلاف التشريح ، منافع الأعضاء ، المدخل إلى المنطق ، قوى النفس ، وغيرها. [٥٦]

وهناك كثير من اعلام السريان الذين أثروا الحضارة العربية وكان لهم أثر في خدمة الانسانية ، كأيوب الرهاوي، جرجس اسقف العرب ، الحسن بن بهلول ، أبن العبري ، عبد يشوع الصوباي وأخرون.[٥٧]

أما اليوم فان الآرامية الحديثة في بلاد الرافدين تتمثل بالسريانية الدارجة أو لهجة السورث ، وهي لهجة الآثوريين وغالبية الكلدان والسريان ، وهي لاتزال متداولة في الأوساط السريانية . وهناك آراميون آخرون هم الصابئة المندائيون الذين لا يزالون يستخدمون المندائية ، وهي احدى اللهجات الآرامية، في اقامة صلواتهم وشعائرهم الدينية ، ومن أهم كتبهم : **الكنزا ربا** : أي الكتاب العظيم ، **دراشا ديهيا** : أي تعاليم يحيى ، **القلستا:** أي كتاب المدح ، **سدرا د نشماثا** : أي كتاب النفوس .

في ما تقدم قدمنا دراسة للغة الارامية عبر العصور التاريخية في بلاد الرافدين في ضوء المعطيات الاثارية والمصادر التاريخية اوجزنا فيها مراحل ظهور هذه اللغة ومراحل تطورها وانتشارها وتفرع اللهجات منها في بلاد دالرافدين والبلدان المجاورة ثم عوامل انحسارها وبقاء بعض لهجاتها المحكية الى يومنا هذا .

الهوامش

١ دوبونت ،سومر، الآراميون، ترجمة البير ابونا، بغداد ٢٠٠٤، ص٧٦.

٢ الجبوري ، د.علي ياسين ، القبائل العربية القديمة في بلاد بابل خلال الالف الاول قبل الميلاد ، وقائع ندوة الوطن العربي النواة والامتدادات عبر التاريخ ، منشورات المجمع العلمي ، بغداد ٢٠٠٠ ، ص ٣٠ .

٣ رو، جورج . العراق القديم، ترجمة : حسين علوان حسين ، بغداد(د.ت) ، ص٤١١.

٤ حتي ، فيليب ، تاريخ سوريا وفلسطين ولبنان ، ج١، بيروت ١٩٥٨، ص ١٨٢.

٥ اسماعيل ، د. بهيجة خليل ، " الكتابة " حضارة العراق ، ج١ ، بغداد ١٩٨٥، ص ٢٢٥ .

6 Al-Wiees ، A.H.، the use of Aramaic in the new – Assyrian Empire in the ninth–seventh centuries B.C.، Ph.D. Dissertation ، University of Wells 1984 ،P. 133.

٧ ينظر : الجبوري ،د. علي ياسين ، مصدر سابق ، ص٤٦ ؛ حسو ، ماجدة ، الصلات الآشورية الآرامية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ١٩٩٥،ص١٥٦.

٨ دوبونت ،سومر،مصدر سابق ،ص٨١.

٩ المصدر نفسه .

١٠ رو، جورج، مصدر سابق، ص ٥٠٢.

١١ دوبونت ،سومر،مصدرسابق، ص ٨٤ .

١٢ شهادات مستمدة من التأريخ، مقالة من الانترنيت ،http://www.alkalema.us.

١٣ ساكز، هاري، عظمة بابل، ترجمة: د. عامر سليمان، بغداد ١٩٧٩، ص١٧٢.
١٤ شهادات مستمدة من التاريخ، مصدر سابق .
١٥ سوسة، احمد، العرب واليهود في التاريخ، بغداد١٩٧٢، ص١٥٨.
١٦ المصدر نفسه، ص١٥٩.
١٧ هاري ساكز،مصدر سابق، ص١٨٢ .
١٨ علي، د. خالد اسماعيل، مصدر سابق، ص٤١.
١٩ دوبونت ،سومر،مصدر سابق، ص٨٥.
٢٠ موسكاتي ، سباتينو،الحضارات السامية القديمة ، ترجمة : د. سيد يعقوب بكر ، القاهرة (د.ت) ، ص ١٨١ .
٢١ شهادات مستمدة من التاريخ ، مصدر سابق .
٢٢ دوبونت ،سومر، مصدر سابق، ص٨٦ .
٢٣ قاموس الكتاب المقدس ، نخبة من الاساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين ، مجمع الكنائس في الشرق الادنى ، ط ٢ ، بيروت ١٩٧١ ، ص٦٢١.
٢٤ دوبونت ،سومر،مصدر سابق، ص٩٦.
٢٥ ينظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج ١ / الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين ، ط٢ ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ٥٩١ .
٢٦ ينظر : دوبونت ،سومر،مصدر سابق، ص ٩٤ .
٢٧ المصدر نفسه ، ص ٩٥ .
٢٨ المصدر نفسه ، ص ٩٧.
٢٩ المصدر نفسه، ص ٩٨.
٣٠ المصدر نفسه ، ص٩٦.
٣١ المصدر نفسه .
٣٢ المصدر نفسه ، ص٩٨-٩٩.
٣٣ طه باقر، مصدر سابق ، ص٥٩٧.
٣٤ المصدر نفسه، ص٦٠١.
٣٥ بيرينا، حسن، تاريخ إيران القديم، ترجمة: د. محمد نور الدين عبد المنعم ود. السباعي محمد السباعي ، القاهرة (د.ت) ، ص ٢١٣.
٣٦ علي ،د. خالد اسماعيل ، قواعد كتابات الحضر ، جامعة اليرموك ١٩٩٨، ص٢.
٣٧ رو ، جورج، مصدر سابق ، ص٥٦٠.
٣٨ سعيد ،د.مؤيد، العراق في التاريخ، بغداد١٩٨٣،ص٢٥٨.
٣٩ ينظر : علي ، د. خالد اسماعيل ، قواعد كتابات الحضر، مصدر سابق ، ص ٢ – ٤ .

٤٠ ينظر: صنا، المطران اندراوس ، بين العربية والسريانية (اللغة الآرامية)، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثاني،بغداد ١٩٧٦، ص١٦-٢٠.

٤١ حتي ، فيليب، مصدر سابق ، ص٤٠٨.

٤٢ الملاح، د. هاشم يحيى، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة الموصل ١٩٩٤، ص٢١٤.

٤٣ البير ابونا ، تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، ج٢، بغداد ١٩٩٢، ص٢٥.

٤٤ الملاح ، مصدر سابق ، ص٢٤٥ ، ٢٤٤.

45 Cantineau،J.، Le Nabateen ،Paris 1930، P.25.

٤٦ البير ابونا ، تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية ، مصدر سلبق، ص٢٨.

٤٧ اكتشف هذا النقش سنة ١٩٠١ من قبل عالمين آثاريين هما دوسّو وماكلر ، ونشر لاول مرة في المجلة الآثارية ، العدد(٢) ١٩٠٢، ص٤٠٩-٤٢١ ؛ ينظر: Cantineau ،J.، Le Nabateen، P.49.

48 Cantineau، J.، op.cit. ، P.49.

٤٩ بيرينا ، مصدر سابق ، ص٣٣٤.

٥٠ ذكر ابن النديم هذه الكتابة باسم (زوراشن) فقال : ولهم هجاء يقال له زوراشن ، وهو نحو الف كلمة ، فمن اراد ان يكتب (كوشت) وهو اللحم بالعربية كتبه (بسرا) وهو اللحم بالسريانية ويقرأه كوشت . ينظر: المصدر نفسه .

٥١ بيرينا ، مصدر سابق ، ص ٣٣٤.

٥٢ الخوري، القس بولس، غرامطيق اللغة الآرامية السريانية ، ط٢ ، بيروت١٩٦٢،ص٦.

٥٣ المصدر نفسه، ص٧.

٥٤ ينظر: حبي، د.يوسف ، أصالة السريانية ومساهمتها في البناء الحضاري، مجلة المجمع العلمي العراقي،العدد الخاص بهيأة اللغة السريانية ، المجلد السابع ، بغداد١٩٨٣،ص٢٢-٣٠.

٥٥ المصدر نفسه ، ص٢٨.

٥٦ المصدر نفسه ،ص٣٠.

٥٧ المصدر نفسه ، ص٣١-٣٢.